

رفائيل^(١)

للدكتور عبد الوهاب عزام

الارحة بعد نصف الليل أنعمت قصة رفائيل قراءة . وكنت بدأت قراءتها منذ زمان بعيد فتناول الأمد . وثاقلت النفس . تناقل النغم والحزن على قلبي جوليا ورفائيل .

ما حبت قط أن الحزن الذي شربته جرعات . وأشربه قلبي وأحسته حيناً بعد حين يبلغ في هذا المبلغ . بلى : أذكر أنني في إحدى الليالي وقفت القراءة اشفاقاً على نفسي حيناً بلغت برفائيل وجوليا حديقته منسو . وحس هنالك الوداع ! أذكر أنني حينئذ وضعت الكتاب على حافة السرير . وألقيت على الوسادة رأساً نوحاً بالهموم . فاج في الليل وطار الفكر في أرجاء السموات . وتدفق القلب بأحزانه وقرات . ودارت النفس في أعماق من الظلام والفكر ما لها من قرار . ولكنني ما حبت قط أن الحزن آخذني إلى هذه الغاية . وأذكر في هذه القصة مواقف موجهة .

وشاهد مروعاً . أذكر جوليا ورفائيل . وصفا في نفسيهما مأساتان أحكم الله تأليفهما . وبعثهما إلى الأرض في صفحات الحداثات أو في صفحات لامرئين ليقرأ على مر الأيام . . . وأذكر البحيرة بحيرة . برجيه . يوم جمع القضاء بين حبيبين لا يعرف أحدهما الآخر . فكأنهما التقيا على مرعد بعد أن برح بهما الشرق . وأمضت في الانتظار . ويوم حان فراق . . . ورحلت جوليا إلى باريس فتبعها رفائيل يرقبها عن كثب وهي لا تدري . ويتبعها كلما عرض لها ما تنكره : حتى أبلغها دارها ثم رجع . وأذكر تلاقيا في باريس يجتمعان على صدى عذري . وفرح هر أشد ضروب الطباب . في ملتحى حبيبين هو أشبه بمانم تياً فيه للقضاء الذي ليس منه مفر . ويوم يبيع رفائيل لؤلؤة أمه وهو يلها بدمه ليستطيع الإقامة على مقربة من جوليا . ويوم ذهب إلى أمه فأخبرها أن الطبيب أشار عليه بالمسير إلى سافوا . فلا يجد أمه بدا أن تقسو على أقر صديق وأنفس ذخيرة وأجل ذكرى : الشجرات اللاتي يظللن المنزل واللاتي حيون على هذه الأسرة دهرأ طويلاً ! فكان في ظلالهن

متناوح اللهب ومدارج الصا لرفائيل وأمه وأيه . فانظر كيف تضطربها الأقدار . أن تسلط الفأس على هذه الأشجار ! كل أولئك أذكره . وانها لا ذكرى بمضة . ولكن ما حبت قط أن يبلغ الحزن في هذا المدى !

الارحة بعد نصف الليل أخذت الكتاب أقرأ الوريقات القليلة الباقية ونفسي تضطرب فزعاً مما سيلقاها في ثانيا هذه الصفحات التي مدت كأنها صحف الغيب تنفتح عن المقادير واحداً بعد آخر . حتى إذا بلغ رفائيل الكرخ الذي حمل إليه جوليا . فلم ير إلا ظلاماً ولم يسمع بين الظلام نأمة حتى . فدار يقبل الجدار والجدار . حتى بلغ المكان الذي ركع فيه بين يدي جوليا وهي في غشيتها يوم البحيرة . ثم يتعامل إلى جدول يأكل على حافته ما يملك ذمائه . على ذكرى قاتلة . وحرقة يعا بها الوصف .

قرأت حتى جاء الملاح إلى رفائيل برسالة من صديقه لويس يلغه رسائل جوليا . فعاد رفائيل إلى حجرته يسير إلى مهلكة على شعاع ذار من أشعة الشمس الغاربة . يفض رفائيل الغلاف عن رسالة لويس ثم عند مسائل باريس فاذا كتاب معلم بالسواد . وإذا خط . أن . لاخط جوليا . يقرأ سطوراً سوداء تنمى إليه جوليا . وينظر بصره الزائغ فاذا خط جوليا نفسها — أجل خط جوليا نفسها — ولكنها كلمة أرادت قلبها عليها وهي في غمرات الموت تعزى رفائيل عن نفسها . فقله ما أظلمها قمزية ! تركت رفائيل يفر مشياً عليه . وخررت على فراشي فبكيت ثم بكيت ثم لج في البكاء . وحاولت سدى أن أسكن جأشي أو أكنفكف دمعى . ماتعمدت البكاء ولا رجوت . ولا خلت أن أنتهى إليه . ولكنك كان وحيأ من الحزن والدمع لا أعرف من أين هبط . بل ثورة من هموم راكدة . وأحزان كامنة . كانت قصة رفائيل لها كقدحة الزناد . أو كظربة مسحاة على نبع يدافع الثرى لينفجر .

كذلك انتهت في قصة رفائيل . وكذلك أبكى لامرئين بعد مائة سنة شاعراً مجهولاً بنفسه لامرئين طبعاً مكتئباً . وقللاً منقبضاً . ونفساً ملتجة . شاعراً قد يبلغ به الاعتداد بنفسه أن يظن أن ليس بينه وبين أن يكون لامرئين آخر إلا . التأملات (١) .

كذلك فعلت في قصة رفائيل . قلنا أفقت لم أدر الأساء إلى لامرئين أم أحسن . ولم أدر أأحد صديق الزيات أم ألهاء ؟ عبد الوهاب عزام

(١) كتبه بدمه يوم الجمعة ١٢ صفر سنة ١٣١١ هـ . ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٩ م قراءة قصة رفائيل التي ألها لامرئين قصاص الفرنسي وزوجها الأستاذ أحمد حسن الزيات

(١) Les Méditations التي نشره لامرئين سنة ١٨٢٠ م فكان تقاً في الأمد القصر